بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢– ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤– ٧ أيلول ٢٠٠٧م

الحب في القرآن الكريم

آية الله السيد أبو القاسم الديباجي

عَمّان – المملكة الأردنية الهاشمية

الحب في القرآن الكريم

آية الله الديباجي

" الحمد لله الأول قبل أولية الأولين والباقي بعد فناء العالمين " ! !

بادئ ذي بدء نقول إن للحب مرتبة عظيمة ومقاماً شريفاً عند أهل الله ، فهو القاعدة التي بُني عليها بيت العرفان والسبيل الوحيد عند العرفاء لمعرفة الله والتقرب إليه والزلفى لديه ، وكل الحالات والمقامات والمعارف والكمالات التي ينالها العارف بالله في جميع مراحل سيره إلى الله تعالى إنما أساسها الحب .

يقول العرفاء إن علة خلق عالم الوجود عامةً والإنسان بوجه خاص – وهي العلة الغائية لإيجاد العوالم – لمكن لتكميل الذات الإلهية ، فهو الكمال المطلق ومطلق الكمال المنزّه عن كل نقص ، وهو الغني عن العالمين ، بل لحب الجناب الإلهي الأزلي لنفسه الموجب لظهور ذوات أسمائه وصفاته ، وبروز حقائقها وكمالاتها التي تطلب المظاهر والمجالي ، فتظهر بها الجواهر المكنونة والأسرار المصونة والكمالات المخزونة إلى عالم الكثرات ، فيمكن للخلق إدراكه ومعرفته ، ولهذا لما قرأ القارئ في مجلس الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير [1] قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، قال : لَعَمْري يُحِبُّهُمْ ويَحِقُّ أنَّه يُحِبُّهُمْ لأنَّه إنَّما يُحِبُّ نَفْسَه ! ! [2]

وعلى هذا فإن الحركة التي دار عليها مدار الوجود من العدم إلى أبد الدهر هي في الحقيقة حركة حُبّيَّة، ولولا هذا الحب ما ظهر العالم بوجوده العيني ، وبوجود العالم ظهرت أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته ، قال تعالى

[1] أبو الخير حسن بن بهنام بن بابا بن سوار بن بهنام المشهور بـ أبي سعيد أبي الخير النيشابوري " تلميذ أبي الفضل السرخسي ومن أبرز العرفاء في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، توفي عام ٤٤٠ هـ .

[2] رياض السالكين : ج ٢ ص ٢٥٧ ، إحياء العلوم : ج ٤ ص ٣٢٨ .

في حديث قدسي : "كُنتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَفَ "[1] ، فالحب مبدأ الخلق وسرُّه وعلَّته ، وكما قيل : لولا الحب ما وُجد بر ولا بحر ولا أرض ولا سماء .

وقد ورد الحب والمحبة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وجوامع الروايات منقسمة إلى جانبين :

حب الحق للخلق ، وحب الخلق للحق .

وأما تفصيل ذلك :

الجانب الأول : حب الحق للخلق

لما تجلى الحق تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته في جميع صور الوجود كان تجليه في الإنسان – وهو الجامع لجميع حقائق الوجود – أكمل التجليات وظهوره أتم الظهورات ، والحق سبحانه إنما يحب عباده لحبه ذاته المقدسة المتعالية ، وكما قيل إن " مَنْ أَحَبَّ شيئاً أَحَبَّ آثارَهُ " ، فكان الإنسان أكثر الخلق استحقاقا لمحبة الله ، ومما أوحى الله به لموسى في التوراة : " يا ابْنَ آدَمَ ، إنّي وَحَقّي لَكَ مُحِبٌّ فَبِحَقّي عَلَيْكَ كُنْ لي مُحِبًّا "[2] ! !

هذا وقد أثبت الحق تبارك وتعالى مفردات الحب في كتابه الكريم ، وذكر في طي بعض آياته المباركات أصناف المحبوبين عنده وصفاتهم ، وكذلك الذين لا يحبهم وصفاتهم .

فقال في الأصناف التي يحبها وصفاتهم إنه :

"يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " و "يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " و "يُحِبُّ التَّوَّابِينَ " و "يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ " و "يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ " و "يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " و "يُحِبُّ الصَّابِرِينَ " و "يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ " و "يُحِبُّ الْمُتَصَدِّقِينَ " و "يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " و "يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ " ، وغيرها .

وقال في الأصناف التي لا يحبها وصفاتهم إنه :

[1] بحار الأنوار : ج٨٧ ص ٣٤٤ ، كشف الأسرار : ج٨ ص ٣٨٧ ، جامع الأسرار ومنبع الأنوار : ص ٦٦٥ .

[2] شرح نهج البلاغة : ج ١١ ص ٧٩ .

"لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ" و "لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ" و "لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" و "لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" و "لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" و "لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" و "لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ" و "لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" و "لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً" و "لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً" و "لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ" و "لاَ يُحِبُّ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ"، وغيرها .

فالله تعالى يحب الأصناف المُحلاّة بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة المَرْضيَّة ، ولا يحب الأصناف المَشُوبة بالرذيلة وسفساف الأخلاق ومذمومها ، لأنه الربُّ المتعال ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا ، يحب الخير والصلاح والإحسان ، ويبغض الشر والفساد والإساءة ، ويريد أن يطهّر عباده عن كل قذارة معنوية وقُبْحٍ باطنيٍّ يعصمهم عن كل ظلم ومعصية ، وينعم عليهم بالكمال والرفعة ، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الجَمالَ" [1] ، فهو تعالى جميل في أسمائه ، وجميل في صفاته ، وجميل في أفعاله ، وكل جميل منه ، ويحب أن يرى أثر جماله على عبده ، فإذا تجمّل العبد بالصفات الحسنة والمقامات الرفيعة وتخلّق بالأسماء الإلهية وظهر بالكمالات الحقانية كان محبوبا عند الله سبحانه وتعالى .

وعلى أي حال ، فإن حب الله تعالى لخلقه إنما هو في الحقيقة حب ذاته المقدسة لذاته ولجماله الأزلي الباقي ، وهذه مدحة محجور عليها للحق ، ممنوعة على غيره ، لا يشركه بها أحد ولا تنبغي لسواه جلَّ ثناؤه وحسنت صفاته وعظمت آلاؤه .

ويقسم العرفاء المحبوبين عند الله تعالى من جهةٍ إلى قسمين :

القسم الأول :

من أحبّهم الله تعالى حب ابتداء وعناية وامتنان ، وقدّم محبته لهم على محبتهم له ، كما هو ظاهر في الآية المباركة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وهو خاص بأهل السعادة من الأنبياء والأوصياء والأولياء والكُمَّلين من أهل الله الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾

[1] بحار الأنوار : ج٧٣ ص ١٩٢ ، الكافي : ج٦ ص ٤٣٨ .

[الأنبياء: ١٠١] ، فأخلصهم ربهم لذاته ، واجتباهم لنفسه ، وتولاهم بعنايته الخاصة وهدايته السابقة ومحبته الأزلية .

القسم الثاني :

الذين أحبهم الله تعالى حبَّ جزاء وكرامة ، وهم التابعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمطيعون له حبا لله تعالى ، وكذلك التائبون الذين رجعوا من المخالفات إلى الموافقات ، فكانت ثمرة اتباعهم وجزاء طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبتهم محبة الله إياهم كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] .

ولا يخفى أن أهل العناية الإلهية الخاصة تشملهم المحبة الثانية كما شملتهم المحبة الأولى ، فالمحبة الابتدائية وسيلة لنيل المحبة الجزائية ، فبالنسبة للأنبياء والرسل فهو باتباع الوحي : ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] واتباع الهدى الإلهي الذي اهتدى به الأنبياء من قبل : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وبالنسبة لما دون الرسل فبطاعة الرسول والتأسي به ، واتباعه في سيرته وأخلاقه وأحواله ، وفيما جاءهم بأداء الفرائض ، ورغَّبهم بلزوم النوافل ، ففيما رواه النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم عن ربه : " مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ " [1] ، فهم محفوظون بين محبتين إلهيتين ، محبة عناية ومحبة كرامة .

ويقول بعض أرباب العرفان :

كما أن لمحبة المحب مراتب متفاضلة ، كذلك لمحبة المحبوب درجات متفاوتة :

فمحبته للعوام : باختصاصهم بالرحمة والغفران ، والتجلي عليهم بالأفعال والآيات .

ومحبته للخواص : باختصاصهم بتجلي صفات الجمال ، وستر ظلمة صفاتهم بأنوار صفاته .

[1] مستدرك الوسائل: ج٣ ص٥٨ ، أصول الكافي : ج٢ ص٣٥٢ ، محاسن البرقي : ص٢٩١ ، رياض الصالحين (للنووي) : ص٦٣ .

ومحبته لأخص الخواص : باختصاصهم بالجذبات ، وستر ظلمة وجودهم بأنوار الوجود الحقيقي ، فيتجلى أولا بنار الجلال ، فيحرق عن قلوبهم جميع ما كان فيها (منها) ، ثم يتجلى بنور الجمال ، فيمحوهم ويثبتهم به ، ويسلب عنهم السمع والبصر والنطق [1] .

الجانب الثاني : حب الخلق للحق

وفي معنى هذا الجانب من الحب أقوال عرفانية مختلفة للمحبين تنصَبُّ كلها في بوتقة واحدة ، وهي الحب الخلقي للخالق عزَّ وجَلَّ ، نذكر جملة منها :

قال بعضهم : المحبة إمحاء القلب عما سوى المحبوب .

وقال بعضهم : نار في القلب تحرق ما سوى المراد المحبوب .

وقال بعضهم : الموافقة في جميع الأحوال .

وقال بعضهم : ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر والإحسان .

وقال بعضهم : بذل الجهد والحبيب يفعل ما يشاء .

وقال آخرون : ميل العبد بالكلية إلى المولى الحق ، وإيثاره له على نفسه وروحه وماله وولده ، ثم الموافقة له سرًّا وجهراً فيما سَرَّه أو أساءه ، ثم العلم بالتقصير في حق المحبوب ومحبته .

ويقول العرفاء إن الجمال محبوب لذاته ، و إن الحب هو الميل إلى الجمال والانجذاب إليه ، ولما كان الباري عزَّ وجلَّ هو الجميل على الإطلاق ولا أجمل منه كان العالم كله محبا لله تعالى ولجماله في خلقه وحسنه في إبداعه .

وكل معلول يعشق علَّته وكل ناقص يميل إلى من هو أكمل منه ، وكل موجود ينجذب إلى موجده ، وواجب الوجود جل جلاله وتقدّست أسماؤه علة العلل والكمال الأكمل ، فكل موجودات العالم في حركة رجوعية وسير ارتقائي وعَود فنائي إليه ، ولهذا قال الحكماء إن : "الواجِبَ بِالذَّاتِ هُوَ المَعْشوقُ الأوَّلُ" ! !

[1] رياض السالكين : ج ٢ ص ٢٥٩ .

فالمحبة من الوجدانيات التي لا تحتاج إلى تعريف حقيقي ، بل يمكن أن يقال إنها إدراك الكمال من حيث إنه مؤثـّر ، وكلما كان الإدراك أتم والمدرَك أشد كمالية مؤثـّرة كانت المحبة أكمل .

والنوع الإنساني هو أكثر أنواع الموجودات اختلافا بين أفراده ، وذلك لفوارق الاستعدادات في نيل الكمالات الإنسانية ، فمنهم من يرتقي إلى مرتبة الملائكة المقربين أو أرفع منها ، ومنهم من يهبط إلى مرتبة البهائم أو أدنى منها ، ولهذا تختلف محبوبات النفس الإنسانية حسب اختلاف مراتبها الوجودية ومعارفها الإلهية وحالاتها النفسانية من شهوانية وغضبية وشيطانية ومَلَكية[1] .

والحب عنوان كلي ذو شئون متفاوتة ، ومَثَـله كالبحر ينظر إليه رجلان ، فيقول أحدهما هذا بحر ، ويقول الآخر هذا موج ، وكلاهما في الواقع ينظران إلى حقيقة واحدة وهي البحر ، كذلك الحب هو حقيقة واحدة وأصل كلي مركزه القلب ، ولكنه ذو مراتب وشئون تختلف من شخص إلى آخر ، ولذا قسَّم العرفاء هذا المقام إلى مراتب ثلاثة :

المرتبة الأولى : الحب

وهو الخلوص في الولاء والخلو عن شوب الأغيار والصفاء عن كدر العوارض والأستار الذي يعيق اتصال المحب بمحبوبه ، فلا ولاء للحق إلا بالبراءة من الخلق .

المرتبة الثانية : العشق

وهو الحب المفرط الذي يعمي صاحبه عن كل شيء سوى محبوبه ، ويسري في جميع بدنه وروحه حتى لا يبقى متَّسع لغيره ، فلا يسمع إلا منه ، ولا ينطق إلا به ، ولا يرى شيئا غيره إلا رآه فيه ، أو كما قال بعض العرفاء :

[1] فأتم حالات النفس الشهوانية أن تتمتع أبدا بلَذّاتها من الأكل والجماع ، وأتم حالات النفس الغضبية أن تكون رئيسة وغالبة على غيرها عاشقة للقهر والانتقام ، وأتم حالات النفس الشيطانية أن تكون ماكرة حيالة كاذبة تلبس الحق بالباطل ، ومن أتم حالات النفس الملكية أن تعرف الحقائق وترغب في الخلوة مع الله ومناجاته فتكون عاشقة للمعارف الإلهية مسرورة بذكر الله متشوقة إلى جوار الله ولقائه – الأسفار الأربعة مجلد ٧ ص ١٨٥ .

" العِشقُ هُوَ الْتِفافُ الحُبِ عَلَى المُحبّ حتى خالَطَ جَميعَ أجْزائه واشتَمَلَ عَلَيه اشتمالَ الصَّمّاء "[1]، وقد عبّر عنه الحق تعالى في كتابه بالحب الشديد :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وكذلك قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام وزليخا :﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف:٣٠] . أي صار حبها ليوسف عليه السلام كالشغاف على قلبها ، وهي الجلدة الرقيقة المحيطة بالقلب .

وقد نفى الكثيرون صفة العشق لله تعالى ، وقالوا إن العشق إفراط المحبة وتجاوُز الحد فيه ، وهو مخصوص بمحبة غير الله ، وأما الباريء سبحانه فهو أجلُّ وأكرم من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحد في محبته ، فلا يجوز استعمال كلمة العشق في حبه .

ولكن السيد صدر الدين كاشف الدزفولي رضي الله عنه يردُّ هذا القول ، ويقول في بعض رسائله في السير والسلوك :

" اعْلَمْ أنَّ أقْوال أرْباب الطريقَة في مَعْنَى العشْق وحقيقَته كَثيرةٌ ، والظاهرُ أنَّ حقيقَةَ مَعْنَى العشْق مُبْهَمٌ بَلْ مَجْهولُ الكُنْه ، ويُمْكنُ القَوْلُ إنَّ العشْقَ مثْلُ الوجود الَّذي وإنْ كانَ غيرَ مَعْلوم منْ حَيْثُ الكُنْه والذَّات إلاَّ أنَّ آثارَهُ تَدُلُّ عَلَيْه ، كما أنَّ آثارَ نور الشمْس وإشْراقها عَلَى ذرَّات ماهيَّات المَوْجودات تَدُلُّ عَلَى وُجود ونورانيَّة الشمْس ، ومُخْتَصرُ الكَلام في هذا المَطْلَب أنَّ العشْقَ يُطْلَقُ عَلَى إفْراط المَحَبَّة ، والمَحَبَّةُ إدْراكُ المُناسب ، ويُنْكرُ بَعْضُ عُلَماء الظاهر نسْبَةَ المَحَبَّة إلى الخالق عَزَّ وجَلَّ في حين أنَّ بَعْضَ فَقَرات أدْعيَة الأئمَّة الأطْهار (ع) تُظْهرُ تَماماً كَظُهور الشمْس في رابعَة النهار في الشوق والمَحَبَّة الإلهيَّة ، بَلْ إنَّهُمْ (ع) في مَحَبَّة الخالق عَزَّ وجَلَّ كانُوا في مَرْتَبَة العشْق ، والزيارَةُ الجامعَةُ – وهي أفْضَلُ الزيارات المُعْتَبَرَة – تَدُلُّ عَلَى ذلكَ ، قال الإمامُ (ع) في حَقّ أئمَّة الدين (ع) : " والتامّينَ في مَحَبَّة الله " ، ولا شكَّ أنَّ المُرادَ منْ تَمام المَحَبَّة هُوَ العشْقُ ، والمَحَبَّةُ الَّتي لا تَصلُ إلى مَرْتَبَة العشْق ناقصَةٌ غَيْرُ تامَّة ، وهذا المَعْنَى للعشْق – أي إفْراطُ المَحَبَّة – مُتَّفقٌ عَلَيْه أصْحابُ القُلوب ، ومَتَى ما حَصَلَ الإفْراطُ في المَحَبَّة فَالمَحَبَّةُ في غايَة كَمالها " .

[1] العشق مأخوذ من العشقة اللبلابة التي تلتف على شجرة العنب وأمثالها .

المرتبة الثالثة : المحو

وهو حال من أحوال الحب ، وهو عدم ركون العبد إلى الأسباب ، وفناؤه عن نفسه ، واستهلاكه في الله تبارك وتعالى ، وقربه الحقيقي منه حتى يتجلّى له ، فإنما يتجلّى الحق لمن انمحى رسمه وزال عنه اسمه ، ويعبّر عنه بعض العرفاء بـ " غليان القلب " [1] .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تمنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

" انْظُرُوا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يَغْذُوانِه بَأَطْيَبِ الطَّعامِ والشَّرابِ فَدَعاهُ حُبُّ اللهِ ورَسُولِه إِلَى ما تَرَوْنَ " [2] ! !

وقد صنَّف بعض العرفاء كصدر المتألهين الشيرازي (قده) العشق الإنساني إلى صنفين : حقيقي ومجازي ، فالعشق الحقيقي هو لله تعالى ولأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهذا لا يكون إلا للمتألهين الكاملين الذين حصل لهم الفناء الكلي ، وأما العشق المجازي فينقسم إلى عشق نفساني وعشق حيواني ، والعشق النفساني عشق عفيف تقتضيه لطافة نفس العاشق ، وهو ما كان مبدؤه مشاكلة نفس العاشق والمعشوق في الجوهر ، فيكون الإعجاب بشمائل المعشوق وآثاره [3] ومعرفة قدره ، وغايته التشبه بالمحبوب ، وأما العشق الحيواني فتقتضيه النفس الأمارة بالسوء ، وهو ما كان مبدؤه شهوة بدنية ، وغايته حصول لذة بهيمية .

[1] قسَّم بعض العرفاء صفة الحب إلى أربعة أحوال لكل حال اسم تُعرَف به وهي : الهوى والودّ والحب والعشق ، فأول سقوطه في القلب وحصوله يسمى هوى وأسبابه كثيرة كالنظر والخبر والإحسان وغيرها ، ثم الودّ وهو ثباته ، ثم الحب وهو صفاؤه عن كدورات العوارض وخلاصه من إرادته فهو مع إرادة محبوبه ، ثم العشق وهو التفافه بالقلب حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه ، وقسَّم بعض العرفاء المحبة من حيث المقامات إلى ثلاثة : الصدق ، السُّكْر ، الفناء .

[2] شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد) : ج ١٠ ص ١٥٦ .

[3] الأسفار الأربعة : مجلد ٧ ص ١٧٤ .

هذا وقد أشار الحكيم الشيرازي (قده) أن العشق النفساني يجعل نفس العاشق لينة شفيقة ذات وجْد وحزن ورقَّة قلب ، كأنها تطلب شيئا باطنيا مختفيا عن الحواس ، فتنقطع عن الشواغل الدنيوية ، جاعلة جميع الهموم همًّا واحدا ، فلأجل ذلك يكون الإقبال على المعشوق الحقيقي أسهل على صاحبه وأقرب إليه ، فلا يحتاج إلى الانقطاع عن أشياء كثيرة .

ثم يقول (قده) :

ولا يخفى في هذا المقام أن هذا العشق وإن كان معدودا من الفضائل إلا أنه لا يكون محمودا وشريفا على الإطلاق في كل وقت وعلى كل حال ومن كل أحد من الناس ، بل ينبغي استعمال هذه المحبة في أواسط السلوك العرفاني لترقيق النفس وإخراجها عن بحر الشهوات الحيوانية ، وأما عند استكمال النفس بالعلوم الإلهية وصيرورتها عقلا بالفعل محيطا بالعلوم الكلية لا ينبغي لها الاشتغال بعشق الشمائل البشرية اللطيفة ، ولهذا قيل " المجاز قنطرة الحقيقة " وبعد عبور القنطرة يكون الرجوع إلى المجاز أمرا قبيحا ويُعَدُّ من الرذائل بعد ما كان من الفضائل [1] .

[1] ويستند العارف السيد صدر الدين الكاشف الدزفولي (قده) في مقام العشق العفيف إلى رواية نقلها الشيخ الصدوق في علل الشرائع في باب العشق الباطل ص ١٤٠ وهي : أن مفضل بن عمر روى عن مولانا الصادق (ع) وقد سأله عن عشق الباطل فقال (ع) : " قُلوبٌ خَلَتْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ فَأَذاقَها اللهُ حُبَّ غَيْرِه " ، ثم يقول السيد صدر الدين : وإن كان ظاهر الحديث يذم العشق الباطل أو العشق المجازي – عفيفا كان أو غير عفيف – ولكن قد يكون المعنى وحقيقة الأمر مدحاً لا ذمًّا بشرط العفة ، وأن لا يكون على أساس الشهوة الحيوانية ، لأن أصحاب الطريقة وأرباب القلوب يعتقدون أن العشق ا لعفيف يُعين القوة الشوقية والقوى الروحانية للتوجه إلى المحبوب الحقيقي بسبب تطهير وتلطيف السر والباطن من الأفكار الزائفة والخيالات الكاسدة وجعْل الهموم كلها همًّا واحدا ، ولا تبقى من الحجب الظلمانية سوى حجاب المعشوق المجازي ، فيكون كل خياله وفكره ونظره متوجها إليه ، مما يسهل على صاحبه التخلي عنه والتوجه إلى الحق بإمدادات الفيوضات الربانية والتوفيقات السبحانية وبالرياضة والمجاهدة ، إلا إذا لم يكن مقترنا بالعفة أو أن يصل بصاحبه إلى مرحلة الفناء في المعشوق المجازي إلى حد نسيان المحبوب الحقيقي بالكلية .

لذا فمؤدَّى معنى كلام مولانا (ع) – والله أعلم – هو مدح العشق العفيف ، وإن كان باطلا في مقابل عشق المعشوق الحقيقي ، فبعض القلوب خلَت عن ذكر الله ولم تتوجه بالشوق والمحبة إلى الله لأنها لم تجد حقيقة معنى المحبة والشوق ولم تذُقْ حلاوة لذتها في حق المعشوق =

وقد قيل إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ، وغاية الطرق كلها هو الله كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود: ١٢٣]، وأقرب الطرق إليه معرفته ، وكلما ازدادت معرفته اشتعل القلب بنور محبته وتجليات جماله أكثر فأكثر ، فمن تحبّب إلى الله تعالى وتقرّب إلى جنابه وتخلّق بأخلاقه علماً وعملاً غدَا عالماً إلهيًا وعارفاً ربّانيًا ومَظهَرا من مظاهر أسماء الله ومن المقربين .

وفيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّه داود عليه السلام :

" يا داود ! لما أحَبَّني أحَدٌ أعْلَمُ ذلك يَقيناً مِنْ قَلْبِه إلاّ قَبِلْتُهُ لنَفْسي وَأحْبَبْتُهُ حُبًّا لا يَتَقَدَّمُهُ أحَدٌ مِنْ خَلْقي "(1) ! !

رضوان الله تعالى على روح أحد أساتذتنا العظام الذي كان يدعو دائما بهذا الدعاء ويوصينا به :

" اللّهُمَّ أذِقْنا حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ " ! !

فهو العارف الواصل الذي عرف معنى الحب والعشق والفناء في الله تعالى ، ولم ينفكّ من طلب مزيد شراب الحب بكأس الحب عند لقاء المحبوب .

وعلى هذا يمكن القول إن كمال الحب على قدر كمال المحبوب ، فكلما قوي كمال المحبوب وشأنه كان حبه أرفع مرتبة وأعظم مقاما ، فعلى سبيل المثال إذا كانت الدنيا وحطامها هي المحبوب فهذا الحب خسيس ودنيء ولذّته فانية زائلة ، أما إذا كان الله تبارك وتعالى هو المحبوب فحبه أصدق أنواع الحب وأحقه ، وإذا

=الحقيقي ، ثم يقول : وليس المراد من " ذِكْرِ اللهِ " الذكر اللساني ولا الذكر القلبي الخالي عن المحبة والشوق ، فإذا كان المراد الذكر اللساني لقال الإمام(ع) : ألسنة خلت عن ذكر الله ! ! وإذا كان المراد الذكر القلبي لكان ذلك يتطلب المحبة والشوق ومن دونهما أمر ممتنع ! ! والحقيقة هي أن حضرة الجمال والكمال المطلق مشتاق إلى جذب قلوب عباده إلى حسنه وجماله وحبهم له من غير حاجة إليهم وهو الغني الذات عن العالمين حتى يعشقوه ويصلوا إلى كمال اللذة وعظيم الابتهاج به ، وفي حديث الإمام(ع) دلالة صريحة لهذا الادّعاء ، ومثل ذلك – بلا تشبيه – كمثل الوالد المشفق على ولده حينما يراه مائلا إلى غيره ملتفتا إلى سواه ولجذبه إلى نفسه يقدّم له شيئًا حسنا يعلم أنه يحبه وبسببه يتوجه إليه ، لذا فعلة: " فَأَذاقَها اللهُ حُبَّ غَيْرِهِ " هي اللطف والرحمة لا القهر والإبعاد .

(1) بحار الأنوار : ج٧٠ ص٢٦ .

استولى على قلب المحب طهّره عن حب ما سواه ، وكانت درجة محبته لله تعالى أعلى درجات المقرَّبين ، فنعم المحبوب ونعم جزاء المحبين المقرَّبين حين يتجلى لهم جمال رب العالمين .

وقد يعمل البعض – حسب مرتبتهم الوجودية وهم الأكثرية الغالبة – في طاعة الله وعبادته والامتثال لأوامره طمعا في نعيم الجنة أو خوفا من عذاب النار أو كلاهما معا ، وإن كانت الأعمال بنيات صادقة وصحيحة وخالية من الرياء – أي الطمع والخوف – ولا تُفْسَد بغاياتها – أي حصول نعيم الجنة والخلاص من عذاب النار ، إلا أن محبتهم لتلك الطاعات والعبادات لا تندرج تحت مقام محبة الله الخالصة ، لأن عملهم لم يكن إلا لحظوظ أنفسهم ومشتهياتها ونيل اللذات المحسوسة في اليوم الآخر من مشارب ومآكل وأنهار وحور وقصور ، وأما المحب الحقيقي الذي عرف الله بجماله وجلاله فمطلوبه الحق تبارك وتعالى ، ويعبد الله لله ، ويرى الله تعالى أهلا للطاعة والعبادة فيطيعه ، ويعبده حق عبادته ، حتى يتنعم بلذة لقائه وجنة قربه ووصاله .

قال العارفون :

نحن نحب الله تعالى لذاته لا لغرض ولو كان كل شيء محبوبا لأجل شيء آخر دار أو تسلسل ، وإذا كنا نحب الرجل العالم لعلمه والشجاع لقوته وغلبته والزاهد لبراءة ساحته عن المثالب فالله تعالى أحق بالمحبة لأن كل كمال بالنسبة إلى كماله نقص ، والكمال مطلوب لذاته محبوب لنفسه ، وكلما كان الاطلاع على دقائق حكمة الله وقدرته وصنعه أكثر كان حبه أتم ، وبحسب الترقي في درجات العرفان تزداد المحبة إلى أن يستولي سلطان الحب على قلب المؤمن فيشغله عن الالتفات إلى غيره ويغنيه عن حظوظ نفسه ، فبه يسمع وبه يبصر وبه ينطق وبه يبطش وبه يمشي ، فلا يفعل إلا ما أحبه وأراده ، ولا يختار إلا ما أمره ورضيه ، ولا يثق إلا به ، ولا يسكن إلا إليه ولا يتكلم إلا عنه ، ولا يتفكر إلا فيه ، ولا يتنفس إلا معه ، وهذه أحوال تلْطف عن العبارة وتدق عن الإشارة[1] .

[1] رياض السالكين : ج ٢ ص ٢٥٤ .

قال مولانا الإمام أبو جعفر الباقر (ع) لجابر الجعفي في وصف أهل التقوى :

" قَطَعُوا مَحَبَّتَهُمْ بِمَحَبَّةِ رَبِّهِمْ وَوَحَشُوا الدُّنْيا لِطاعَةِ مَليكِهِمْ وَنَظَرُوا إِلَى اللهِ تَعالى وإِلى مَحَبَّتِهِ بِقُلوبِهِمْ وَعَلِمُوا أَنَّ ذلك هُوَ المَنْظورُ إِلَيْهِ لِعَظيمِ شَأْنِهِ " [1] .

فالعارف المحب لله هو الذي يعرف معنى الحب الحقيقي والمحبوب الحقيقي ، فيتجرد عن إرادته ، ويخالف نفسه ومراضيه ، ويخرج عنها بالكلية في سبيل محبوبه ، ويسارع إلى طاعته ، ويفر من معصيته ، لا بمشقة وعناء بل بلذة وحلاوة وطيب نفس ، حتى لا يقدح في قربه إليه طرفة عين أبدا .

وقال مولانا الإمام الصادق (ع) :

" حُبُّ اللهِ إِذا أَضاءَ عَلَى سِرِّ عَبْدٍ أَخْلاهُ عَنْ كُلِّ شاغِلٍ وَكُلِّ ذِكْرٍ سِوَى اللهِ وَالمُحِبُّ أَخْلَصُ الناسِ سِرًّا لِلّهِ " [2] .

لذا حينما ينظر العارف المحب لله إلى غير محبوبه أو يتوجه إلى غيره يعدُّ نفسه من الظالمين الخاطئين .

ثم إن قوة الحب في المحب تدفعه إلى حب لقائه وتوقان رؤيته والأنس به والراحة لديه .

وقد جاء في حديث قدسي :

" يا ابْنَ عِمْرانَ كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّنِي فَإِذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنِّي أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبِيبِهِ، ها أَنَا ذا يا ابْنَ عِمْرانَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحِبَّائِي إِذا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوَّلْتُ أَبْصارَهُمْ فِي قُلوبِهِمْ وَمَثَّلْتُ عُقوبَتِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ يُخاطِبُونِي عَنِ المُشاهَدَةِ وَيُكَلِّمُونِي عَنِ الحُضورِ " [3] .

[1] بحار الأنوار : ج٧٣ ص ٣٦ ، وقال العلاَّمة المجلسي (قده) في تفسير الحديث : قَطَعُوا مَحَبَّتَهم أي عن كل شيء أو عمَّا لا يُرضي الله ، بِمَحَبَّةِ رَبِّهِمْ أي بسببها أو جعلوا محبتهم تابعة لمحبة الله ولا يحبون شيئًا إلا لحب الله له ، ونظَرُوا إلى الله وإلى مَحَبَّتِه بِقُلُوبِهِمْ أي لم ينظروا بعين قلوبهم إلا إلى الله أي رضاه أو معرفته ومراقبته وذكره وعدم الالتفات إلى غيره ، وعَلِمُوا أَنَّ ذلك أي الله ومحبته هُوَ المَنظُورُ إِلَيْهِ أي هو الذي ينبغي أن ينظر إليه لا غيره لِعَظَمَةِ شَأْنِهِ وحقارة ما سواه .

[2] المصدر السابق : ج٧٠ ص ٢٣ .

[3] المصدر السابق : ج١٣ ص ٣٢٩ ، ج٧٠ ص ١٤ ، أمالي الشيخ الصدوق : ط ١٩٧٠ المجلس ٥٧ ص ٣١٨ .

وفي حديث قدسي آخر : " مَنْ أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقاءهُ كَرِهَ اللهُ لِقاءهُ " [1] .

فعلى المحب أن يزِنَ قلبه ، وينظر إلى أي صنف ينتمي ، فإن كان ينتمي إلى الصنف الأول فطوبى له ثم طوبى له ، وليشكر ربه على توفيقه له ومنّه عليه ، وإن كان ينتمي إلى الصنف الثاني – والعياذ بالله – فليستيقظ عن نوم الغفلة ، وينتقل عنه بالتوبة ، وليدع الله تعالى أن يطهّره عن كل لذّة سوى لذة محبته ولقائه ! !

ولما كان العبد لا يلقى ربه إلا بالموت ، نرى أن العارف بالله يستعجل لقاء ربه حبًّا له ، فيموت عن نفسه وإنيّته وإرادته وتصرفاته في الحياة الدنيا حتى يتحقق اللقاء ، ومن هنا قيل : " مَنْ أحَبَّ اللّقاءَ اخْتَارَ الفَناءَ عَلَى البَقاءِ " ! !

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ [الكهف: ١٠٥] .

الأمر عظيم والمقام جدٌّ خطير ، ومن كذَّب بلقاء الله تعالى فإن أعماله باطلة ، ولا قدر له عند الله تعالى يوم القيامة ! !

وعلى عكس ذلك فمن كان زاده الذي يحمله معه عند الميزان هو حبه لله تعالى وحب لقائه ، وكان كل عمله يندرج تحت هذا المقام فذلك يكون له وزن عند الله .

فالملاك الحقيقي والمحور الذي تدور عليه كل الأعمال هو حب الله تعالى ، فإن أحببت شيئًا لله كان ذلك حبا لله، وإن أبغضت شيئًا لله كان ذلك أيضا حبا لله ، وهذا الحب هو الباقي ، وما سواه زائل وفانٍ .

قال الحكيم في كتابه : ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

فالخُلّة التي كانت في الله ومن جهة التقوى هي الثابتة الباقية النافعة يوم القيامة ، وما سواها ممنوعة مقطوعة .

[1] بحار الأنوار : ج٨١ ص٢٦٧ ، نهاية ابن الأثير : ج٤ ص٢٦٦ .

وقد يسأل سائل : إذا كان حب العبد لله تعالى في أعلى مراتبه ، فهل يجوز أن يكون في قلبه حب غير الله سبحانه ؟ !

يقول العارف الصمداني الملا حسين قلي الهمداني (قده) في بعض رسائله : " لا شك أن المحبوب الأول هو ذات الكبرياء جلَّ جلاله ، بل وكلُّ محبةٍ لا ترجعُ إلى محبته فليست بشيء " ! !

نعم ، فالمحبوب بالأصالة والحقيقة هو الله تبارك وتعالى ، ويجوز حب غير الله تعالى على أن يكون أساس حبه للغير هو حب الله تعالى ، وأن يكون الغير من المخلصين لله ومن أحبائه وأودائه ، وهنا يصدق القول إن ليس في القلب سوى حب الله .

ثم يقول الملا حسين قلي (قده) : " ثم بعده محبة من كان للسلطان العظيم الشأن أكثر حبا ، لذا فإن أول محبوبٍ بعد واجب الوجود هو الوجودُ المُقَدَّسُ لخاتَمِ الرسل وخاتمِ الرسالات مُحَمَّدٌ صلوات اللهِ تعالى عليه" ! !

قال مولانا الإمام الصادق (ع) : " المُحِبُّ في اللهِ مُحِبُّ اللهِ والمَحْبوبُ في اللهِ حَبيبُ اللهِ لأنَّهُما لا يَتَحابَّانِ إلاَّ في اللهِ " [1] ! ! فكيف إذا كانت المحبة لمن جعلهم الله تعالى حُججاً على عباده ، وأمَرَ العباد بمحبتهم وطاعتهم ! !

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أحبُّك ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنك لتحبُّني ! ! فقال الرجل : إي والله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنتَ مَعَ مَنْ أحْبَبْتَ [2] ! !

ونخلص مما ذكرنا أن كل حب سوى حب الله تبارك وتعالى أو حب ما يُنسب إليه من نبي أو ولي أخلصه الله تعالى واجتباه لنفسه مجازي ومحكوم عليه بالأفول والعدم المحض ، لأن المحبوب في هذه الحالة – وهو محور الحب المجازي – هالك لا محالة ، فهو القائل سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص:٨٨] .

[1] بحار الأنوار : ج٦٩ ص ٢٥١ .

[2] المصدر السابق : ج٢٧ ص ١٢٢ .

والانجذاب إلى الجمال فطري والتوجه إلى الكمال جِبلِّيٌّ في ذوات ذرات عالم الوجود ، ومع ذلك تتفاوت درجات الحب حسب اتجاه السير وقوته إلى الكمال ، ولما كان الحب هو " ميل النفس إلى الشيء لكمال أو جمال أدركَتْه فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه " [1] .

وعلى هذا الأساس قسَّم العرفاء درجات الحب إلى ثلاث درجات :

الدرجة الأولى :

لأولئك الذين يرون الجمال وكل الجمال في كمال الأخلاق ، فينجذبون إلى كل من اجتمعت فيه مكارم الأخلاق ومحامدها ، كالأدب والصدق والوفاء والأمانة وغيرها ، فيتعشَّقونه ، ويأنسون بلقائه ، ويميلون إلى مصاحبته ، ويتقربون إليه ، ويتخلَّقون بأخلاقه .

الدرجة الثانية :

لأولئك الذين يرون الجمال وكل الجمال في كمال العقل ، وأن كل جميل في عالم الوجود منشأه العقل ، وهم الفلاسفة الذين يبنون نظرياتهم وآراءهم حسب قانون العلة والمعلول ، فيعيشون في جذبة هذا الجمال ، ولولا نور الإيمان والسلوك في معارج العرفان الإلهي لكانت الغالبية العظمى من الناس مؤيدة لهذه الفرقة ، وداخلة في مسلكهم وجذْبتهم ، ولرأت أن كل ما يؤيده العقل ويجد له سبباً وعلة ويعترف به من صَنْعةٍ واختراعٍ جميلٌ ، ولا أجمل منه .

الدرجة الثالثة :

لأرباب الحقائق والعرفان ، وأهل الكشف والشهود ، الذين أنعم الله تعالى عليهم بقوة تفُوق قوة العقل ، فهم مستغرقون في شهود نور الجمال الحقيقي ، ومجذوبون إلى شعاع الكمال الأزلي ، ويرون أن كل جمال دون الجمال المطلق زائل وبائد ، وأن نور جماله فوق كل نور ، ومنوِّر كل نور ، وليس كنوره نور ، ويرون أن جمال وجه الحق الباقي في كل شيء قد تجلَّى في قلوب محبيه ، فيكونون له عاشقين وفي حبه فانين وبشهوده متنعمين مسرورين .

[1] تفسير الصافي : مجلد ١ ص ٣٠٣ .

وأما علامة أصحاب الدرجة الثالثة من الحب فهي أدبهم وخضوعهم وخشوعهم في محضر المحبوب ، لأنهم يعلمون أن ناصيتهم ونواصي الخلق كله بيده سبحانه ، وهو معهم أينما كانوا ، فيتحركون به ، ويسكنون به ، ويعبدونه عن رؤية ومشاهدة وحضور تام .

وبعد بيان درجات الحب وأصناف المحبين نقول في معرض المقارنة بينها إن المجذوب نحو الجمال في كمال الأخلاق يريد الوصف الثبوتي دون الإثبات والتحقق ، ويطلب التخلُّق بخُلُق الآخرين ، في حين أن العارف المجذوب نحو الجمال الإلهي منعوت بالأسماء الإلهية تخلُّقاً وتحقُّقاً ، فيكون متخلِّقا بأخلاق الله ، ومرآةً للحق ، ومجلىً للمظاهر الإلهية والنعوت المقدسة .

وفي ذلك يقول الحكيم الإلهي السبزواري (قده) :

الإنسان بضه طالب التخلُّق بخُلُق بعض آخر ، حتى ينتهي إلى التخلُّق بأخلاق الله تعالى ، مثلاً يتحرك الإنسان ليكون عالماً أديباً ، وإذا كان يسعى أن يصير فقيهاً ، وإذا صار يشتاق إلى أن يغدو متكلماً ، وإذا غدا يجهد أن يكون حكيماً إلهياً ، يعني عالما عقليا مضاهيا للعالم العيني ، وإذا بلغ إلى هذا المقام الذي هو عزيز المنال يبتغي أن يكون متألِّها عارفا ربّانيًا متصرفا ذا الرياستين فائزا بالحسنيين متخلقا بأخلاق الله جلَّ جلاله علماً وعملاً[1] .

وأما المشتغل بعلم الأسباب والمتعلق بالمنهج العقلي في التحليل والتركيب والبحث في العلل والمعلولات والتوقف عندها والركون إليها حينما يصل إلى نتيجة ينجذب إلى جمال العقل ويتشدَّق بكماله ، وهو غافل عن العلم بالله الذي هو رب الأرباب وموجد الأسباب ، فيكون تعلُّقُه بما توصَّل إليه عقله ونَفْيِ ما نفاه عقله صداً على قلبه ومانعاً من تجلّي جمال الحق فيه – وهو المتجلّي بجماله وكماله لعباده في كل حين – وفي عمىً عما دعاه الله تعالى إليه وهو القائل سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي ليعرفون ، فأين هو من العلم الإلهي والمعرفة الربانية التي تتجلى في قلب العارف الكامل ، فيدرك الحقائق الإلهية بعين القلب ، ويشاهد جمال الحق وحسنه وبهاءه ! !

[1] الأسفار الأربعة ، مجلد ٦ ص ٤٣ التعليق .

ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنَّ اللهَ احْتَجَبَ عَنِ العُقولِ كَما احْتَجَبَ عَنِ الأبصارِ "[1] ! !

ولا نعني بقولنا هذا إن العرفان لا يؤيد البحث والاستدلال ، فإن كلا من القوة العاقلة – وهي محور الأصول العقلية والعلوم الفلسفية – والقلب – وهو محور العلوم الإلهية والعرفانية – سبيل للإدراك والفهم حسب القابلية في كل إنسان ، ولا يمكن للإنسان أن يستغني عن أحدهما ، فالعقل لإدراك الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار وللحدّ من الميول النفسانية والرغبات الوهمية ، والقلب لإدراك الحقائق بنحو الشهود الموجب للإيمان والتوحيد ومعرفة الله تعالى والاتصال بعوالم الملكوت والجبروت واللاهوت والارتباط بذات الحق جل شأنه ، ولكل منهما ميزان خاص في كتاب الله تعالى والأحاديث الشريفة .

ففي شأن العقل قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٠]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا قَسَمَ اللهُ للعباد شَيْئاً أَفْضَلَ مِنَ العَقْلِ "[2]، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) : " لا عُدَّةَ أنفعُ مِنَ العَقْلِ ولا عَدُوَّ أضرُّ مِنَ الجَهْلِ "[3] .

وفي شأن القلب قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في القَلْبِ نورٌ لا يُضِيءُ إلاّ مِنْ اتِّباعِ الحَقِّ وقَصْدِ السَّبيلِ وهُوَ نورٌ مِنَ

[1] علم اليقين (للفيض الكاشاني) : ج١ ص ٣٩ .

[2] محاسن البرقي : باب العقل ص ١٩٣ ح ١١ .

[3] بحار الأنوار : ج١ ص ٩٥ .

المُرْسَلِينَ الأنبياء مُودَعٌ في قُلوب المؤْمنينَ " [1] ، وقال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللهَ لا يَنظرُ إلَى صُوَرِكُمْ ولا إلى أمْوالكُمْ وإنَّمَا يَنظرُ إلى قُلوبكُمْ وَأعْمالكُمْ " [2] ، وغيرها من الآيات والروايات .

ولكننا نقول إن القلب أخص من العقل ، وإن العرفان يرى أن العقل قاصر في إدراك حقائق الألوهية وأسرارها ، وغير كافٍ للاتكاء عليه في السير والوصول إلى المقصود ، ولهذا كان العرفان علما جامعا يجمع بين العلم الكشفي والعلم العقلي والفكري ، وبالتالي فهو أعمق رؤيةً وأوسع فضاءً من الفلسفة .

فأصحاب القلوب يرون الله في كل مشهد ومجْلَى على أساس قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، ووجه الشيء حقيقته ، ولكن العقل لا يدرك هذا المعنى ولا يحتويه ، فتقصر عن إدراكه أفهام العقلاء ، وأنّى يكون لهم ذلك وهم يريدون بالدليل العقلي والنتاج الفكري أن يتصوروا من يستحيل عليه الصورة والتصور ، فترجع عقولهم أمام جمال الحق قاصرة حاسرة خائبة ! !

ثم إن العقل يتبع لسان الظاهر وليس له القدرة على إدراك الحقائق اللامتناهية والمعاني اللامحدودة المجردة عن المادة ، وبحسب قوته الفكرية والنظرية لا يدرك سوى المفهومات الذهنية ولوازم الهويات الوجودية دون الحقائق الخارجية ، لأنه من عالم التقييد ، وهو في حد ذاته ضيق في غاية الضيق ، ومحدود بمحدودية الماديات والمحسوسات ، وعاجز عن تجريد المعاني عن المواد ، ولهذا سمي عقلا من العقال ، بخلاف القلب الذي يتقوَّم عليه العرفان ويتبع لسان الباطن فيسع الحق تبارك وتعالى اللامتناهي كما في قوله تعالى في حديث قدسي : "يَسَعُني قَلْبُ عَبْدي المؤْمِنِ " [3] فالقلب يسع الحق حين ضاق عنه العقل ، فلم يسعه ولم يدركه ! !

من ناحية أخرى ، فإن العقل يحجب الحقائق والمعاني تحت ستار الكلمات والألفاظ التي يعتني بها كثيراً ، في حين أنه يغفل عن الحقائق والمعاني ذاتها ، بينما ينظر قلب العارف – ولا كل قلب – إلى تلك الحقائق والمعاني بذاتها ، وقد لا يجد في خزانة الألفاظ ما يستخرجه لبيانها ، فيعبّر عنها تارة ويمسك أخرى ! !

[1] بحار الأنوار : ج٢ ص ٢٦٥ .

[2] مستدرك الوسائل : ج١١ ص ٢٦٤ .

[3] غوالي اللآلئ : ج٤ ص٨ ، بحار الأنوار : ج٥٨ ص ٣٩ ، المحجة البيضاء ج٥ ص ٢٦ .

يقول الحكيم الإلهي والعارف الرباني صدر المتألهين الشيرازي (قده) :

"وإني لأستغفرُ اللهَ كثيراً مِمّا ضَيَّعْتُ شطراً من عُمري في تتبُّع آراء المُتَفَلْسِفَة والمُجادلين من أهل الكلام وتدقيقاتهم وتعَلُّم جَرْبَزَتهم في القول وتفنُّنهم في البحث حتى تبيَّنَ لي آخر الأمر بنور الإيمان وتأييد الله المنان أنَّ قياسَهم عقيمٌ وصراطهم غيرُ مستقيم فألقَيْنا زمامَ أمرنا إليه وإلى رسوله النَّذير المُنذر فكلُّ ما بلَغَنا منه آمنَّا به وصدَّقناه ولم نحتَلْ أنْ نُخيِّلَ له وجهاً عقليًّا ومسلكاً بحثيًّا بل اقتدَيْنا بهُداه وانْتَهَيْنا بنَهْيه امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧]، حتى فتحَ اللهُ على قلبنا ما فتحَ فأفلحَ ببركة مُتابَعَته وأنجَحَ "[١] ! !

والمتمسّك بقاعدة العلة والمعلول المعتمد على كل ما أحالت إليه أدلة العقول غافل عما وهب الله تعالى بعض عباده من قوة تفوق في فضلها وشرافتها عن قوة العقل ، وتتسع دائرتها وإحاطتها عن دائرة العقل ، فتعطي حكما قد توافق قوة العقل في بعض الأمور ، وقد تعطي خلاف ما تعطيه فلا يمكن للعقل إدراكه ، ويستعصي عليه فهمه ، فضلاً عن الاعتقاد به .

والدليل العقلي قد ينفيه دليل عقلي آخر ، وقد يكونان متكافئين في القوة والإقناع فيصعب الترجيح ، وقد يصيب العقل ويخطئ ، بينما شهود الحق لا يكون إلا عن يقين ، فمن تحبّب إلى الله تعالى بالنوافل بعد كمال الفرائض ، وكان عند الله تعالى محبوبا ، وكان الله سمعه وبصره ويده وجميع قواه ، ولا يتصرف إلا بالحق في الحق للحق ، لا يخطئ سمعه ولا يرتاب بصره ولا تقدح عقله حيرة ولا شبهة ، وكلما تجرد الإنسان عن الخلَع الحسية الدانية والحجب المادية الفانية ولَبِس لباس البقاء وعَرَج بروحه معارج الارتقاء كان إلى نور الحق أقرب وإلى الجمال السرمد أحب وأعشق .

وعلاوة على ذلك كله فإن حب الجمال نعت إلهي كما ورد في حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ "[٢]، وجمال الصنعة يعود إلى جمال صانعه ، والعقل من مصنوعات الله تبارك

[١] الأسفار الأربعة : مجلد ١ ص ١١ .

[٢] بحار الأنوار : ج٧٣ ص ١٩٢ ، الكافي : ج٦ ص ٤٣٨ .

وتعالى ، فمن أحب العقل أو أي مصنوع أو مخلوق في العالم من هذا المنظار دون استقلال وحسب قاعدة " الحب تابع للحُسن " فقد أحبه بالمحبة الإلهية ، ويمكن أن نقول إنه في واقع الأمر قد أحب جمال الله تبارك وتعالى ، وأما من استقل بحب العقل وحب جماله وكماله دون حب الله تعالى وحب جماله وكماله فقد ضلَّ ضلالا بعيدا ! !

وكل محب – في أي درجة من درجات الحب التي ذكرناها – يدَّعي الحب ويزهو به ، ولكن صدق الحب يتبين من ردود فعل صاحبه ، والبلاء لا يكون إلا مع الدعوى ، والدعوى لا تصْدُق إلا بالشواهد وإقامة الدليل ، وهنا محل الامتحان ، هل المحب حينما يتطلب حبه الفداء والتضحية وقبول المصاعب والمشاكل في سبيل المحبوب صادق في حبه أم لا ! !

وهنا يمكن القول إن " هنا – أي في موضع الابتلاء – كلٌّ يفتح قبضته وإذا بالأيادي خالية ويفتضح المدَّعون للمحبة في دعواهم " ! !

وأما ردود الأفعال فهي كالتالي :

رد فعل المجذوبين إلى جمال الأخلاق :

وهؤلاء يعيشون في جذبة المحبوب ولا يتحملون فراقه ولكن ليسوا بمستعدين لقبول المتاعب والصعاب والتضحية والفداء في سبيل المحبوب ، ومقولتهم : " أحِبُّ الصالحين ولستُ منهم " ! !

رد فعل المجذوبين إلى جمال العقل :

وهم الفلاسفة الذين يعيشون في جذبة عشق كمال العقل ، وهؤلاء مستعدون لقبول المتاعب والصعاب في سبيل محبوبهم ما لم يتعارض مع مصالحهم الدنيوية ، لأنهم يطلبون من وراء محبتهم جلب المنفعة ودفع المضرة والظفر بأسباب السعادة من حيث ما شخَّصته لهم عقولهم التي قصرت فهمها في حب ما خلقه الحق وجهلت حب الحق ، فإذا ما شعروا أن ثَمَّ منافاة بين قبول الصعاب مع المصالح الكلية يبتعدون عن محبوبهم بسهولة ويستغنون عنه بيسر .

رد فعل المجذوبين إلى الجمال المطلق :

وهم أهل الله المخلصون في محبة الله المتنعمون بشهود جمال الحق المتنورة قلوبهم بتجليات محاسنه ، وكما قيل إن " مَنْ أحبَّ شيئاً أحبَّ آثارَهُ " ، والسالك إلى الله في مقام المحبة يتلذذ بطاعة مولاه وخدمة محبوبه ويتحمل أعباءها ومشاقها ابتغاء وجهه ، ويشعر بالراحة والسعادة لما وفقه الله تعالى إلى خدمته والعمل من أجله ، ويرى أن كل ما يملك في هذه الدنيا أمانة عنده ولابد أن يردها إلى صاحبها ، فـ " العَبْدُ وَمَا في يَدِه لمَوْلاهُ " ، وليس له مُلك أقرب إليه وأعز عليه من نفسه ، مع ذلك فهو على استعداد أن يقدمها قربانا في سبيل محبوبه .

يقول العارف الحقاني بابا طاهر الهمداني رضي الله عنه في كلماته :

" المحبَّةُ أوَّلُها اخْتبارٌ وأوسَطُها افْتقارٌ وآخِرُها اخْتيارٌ " .

وفي شرح هذه الكلمة يقول عين القضاة الهمداني :

مَنْ يدَّعي محبَّةَ الحقّ يختبِرْه المحبوبُ أولا بأنواع البلاء ، فإنْ كان كاذباً رجعَ ردّاً على أطوائه وإنْ يكُنْ صادقاً يخْلُصْ لمَن أبْرَزَ حالَه لسَبْك الامتحان عن غُشوش العلَل ، فيُعْرِضُ عن غَيْرِه مُقْبلاً بالكليّة عليه ويفتقرُ بالحقيقَة إليه ، وظهورُ هذا الافتقارِ في وَسَطِ المحبَّة ، ثمَّ إنْ كانَ منَ المُصْطَفين بلَّغَهُ اللهُ تعالى نهايةَ المحبَّةِ وخَلَعَ عنه لباسَ وجوده واختارَه لمُنادَمَته ومُكالمَته " .

ويقول العارف الكامل الشيخ عبد الرزاق الكاشاني رضي الله عنه في شرح منازل السائرين :

" فمقامُ المحبَّة آخرُ مَنازلِ العَوامّ الذي إذا نَزَلوه خرَجوا منْ رُتبةِ العَوامّ ودخلوا في زمرةِ الخواصّ فيكونُ أوّلَ مقامٍ من مقامِ الخواصّ " [1] ! !

ثم يردف قائلا :

" المحبَّةُ تقتَضي الوصالَ والأنسَ بالجمالِ ، والوصالُ لا يمكنُ إلاَّ ببذل الروح ، والأنسُ يمنَعُ من التفاتِ القلبِ إلى ما سوى المحبوبِ " [2] .

[1] شرح منازل السائرين : ص ٢١٦ .

[2] المصدر السابق : ص ٢١٥ .

ولما كان السالك إلى الله يعيش في محبة الله ويمنع قلبه من التعلق بما سوى الله فهو يؤْثِر الفناء في الله عما ينسب إليه من فعل أو صفة أو ذات ، ويقدّم روحه رخيصة في سبيله ، وبذلك يكون قد وصل إلى أعظم اللذات وأبهجها ، ونعم ما قيل في هذا المقام :

فالروحُ أوّلُ نَقْدَةٍ تأتي بها ... في وَصْلِنا إنْ كُنتَ مِنْ خُطَّابنا

ويقول أهل محبة الله : " لا خَيْرَ فِي حُبٍّ يُدَبَّرُ بالعَقْلِ " .

فالحب لا يجتمع مع العقل في محل واحد ، لأن معاني الحب وراء طور مدارك العقل ، وحكمه يناقض حكم العقل ، والمحب لا يعلّل فعل المحبوب ، حيث إنّ التعليل من فعل العقل ، والله عز وجل يقول : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٣] وكل حب يُبقي في الحب عقلاً يعقل به عن غير محبوبه أو تعقلاً فليس بحب خالص .

ولولا نور محبة الله لا يكون للعقل في كشف كنوز الحقائق من نصيب ولا إلى المقصد الحق من سبيل ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] ! !

فلابد من تحكيم القلب حين النظر إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، حتى يمكن التحقق بأنه لا جمال يفوق جمال الخالق البارئ المصور الذي في كل شيء له آية تدل على أنه واحد ! !

ولحب الله تعالى آثار ، من جملتها :

الأثر الأول : طلب اللقاء وعدم كراهة الموت .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تُحْفَةُ المُؤْمِنِ المَوْتُ " [1] .

فالموت تحفة يتحف الله بها المؤمن ويحبّبه ويكرمه ليقوده من العالم الأدنى إلى العالم الأعلى حيث الرحمة والرضوان والخلود في نعيم مقيم مع الأنبياء والأولياء وجنة أبدية يتبوأ منها حيث يشاء ، ولهذا فالمحب الصادق

[1] بحار الأنوار : ج ٨٢ ص ١٧١ .

لله تبارك وتعالى لا يطلب الموت لذاته بل يرا ه مَعْبرا للقاء محبوبه ومفتاحا لانطلاقه من مضيق سجن الدنيا وظلماتها وقيودها وأغلالها إلى فسيح عالم الآخرة وأنوارها .

وقد يكون المراد بالموت في الحديث النبوي إما الموت الطبيعي أو الموت الاختياري ، فالعابد الزاهد المحجوب عن معرفة الحقائق اليقينية يحصل له الا لقاء مع ربه ولكن بالموت الطبيعي ، والعارف بالله الذي يقطع المنازل ويرتقي في المقامات في السير والسلوك إلى الله تعالى في الحياة الدنيا وينغمر في حب الله تعالى فلم يشاهد سوى الحق هو المقرَّب عند الله وفي لقاء معه في كل أحواله ويشاهده في كل ظهور من ظهوراته وتجَلٍّ من تجلياته من حيث أسمائه وصفاته ، وأما المحجوب الذي حجب قلبه عن ذكر الله وأعماه عن حبه وخرج من عبوديته له واشتغل عنه بما سواه فلا أمل له في لقاء الله تعالى على الإطلاق لا في الدنيا ولا في الآخرة كما جاء في قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، ولذا يكره لقاء الله وبالتالي يكره الموت المحتوم عليه ، يقول الحي الباقي سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨] .

قام رجل إلى الحسن بن علي (ع) فقال يا ابن رسول الله ، ما بالنا نكره الموت ولا نحبه ؟ ! فقال (ع) : إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النَّقْلَةَ مِنَ العُمْرَانِ إِلَى الخَرَابِ [1] .

وعلى هذا فإن حب لقاء الله يتفاوت حسب مراتب حب الله سبحانه ، فمن استغرق في حبه لله واشتد منه الوجْد والشوق والحنين إلى لقائه ورؤيته فهو أشد حبا بلقاء الله وأكثر سرورا برؤيته يوم الورود عليه ، وأما من شابت حبه لله شائبة وشغلت زاوية من زوايا قلبه محبة لغير الله فعلى قدر تعلقه بهذا الشاغل والمحبوب يضعف شوقه وحبه للقاء الله سبحانه .

الأثر الثاني : إيثار رضا الله وإرادته على رضا النفس وإرادتها .

[1] بحار الأنوار : ج٦ ص ١٢٩ .

لَمَّا يدرك العبد أن الحق سبحانه وتعالى أرأف به من نفسه وأرحم ، وأخبر منه بمصلحته وأعلم ، ولا يقع منه شيء إلا ما كان فيه الخير والنفع وإن كان ظاهره يخالف الطبع ، كيف لا يقدّم رضا الله وما يفعله فيه ويريده منه ويقسم له من الرزق على رضا نفسه وإرادتها لاسيما إذا كان العبد عارفا بالله ومحبا مخلصا في حبه لله ! ! فاستغراق العبد في حب الله وحياؤه منه وهيبته عند مشاهدته وتعظيمه له يمنعانه من أن يؤثر شيئا على رضا محبوبه ومولاه ، بل يرى أن كل ما يفعله المحبوب محبوب .

ومما أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى عليه السلام وقال : " يا موسَى إنّكَ لَنْ تتقَرَّبَ إلَيَّ بشيْءٍ أحَبُّ إلَيَّ مِنَ الرِّضا بقَضائِي " ، فخير ما يتقرب به المحب إلى محبوبه والعبد إلى مولاه هو العمل على كل ما يحبه وبلوغ منتهى رضاه وتقديم الرضا بقضائه على رضا النفس بما تشتهيه وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه وإن كان ذلك مخالفا لرضا نفسه .

الأثر الثالث : الحضور وعدم الغفلة .

فمن آثار حب الله تعالى عدم استيلاء الغفلة على القلب والالتفات إلى غير الله ، بل اليقظة والتوجه والجلوس مع الحق على بساط الأنس ، والتجلّي والحضور التام معه ، والغيبة الكلية عمن سواه ، والمراقبة الدائمة له ، والاشتغال بذكره ، سواء كان الذّكر ذكرا لسانيا أو ذكرا قلبيا ، وسواء كان ذكره سبحانه أو ذكر ما يتعلق به أو ما كان مظهرا من مظاهره من رسول أو ولي أو تلاوة قرآن ، وكلها مقامات رفيعة عزيزة المنال تستلزم الأدب مع الحق المعبود سبحانه كما أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " اعْبُدْ اللهَ كَأنَّكَ تَراهُ فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ (فَإنْ كُنْتَ لا تَراهُ) فَإنَّهُ يَراكَ " [1] ، وهذا لا يكون للعبد إلا بحصوله غاية المعرفة بالله والإقبال بكلّه على الله وتخلّيه عن كل ما سواه من علائق وشهوات وشواغل مادية وحظوظ نفسانية .

قال سيد الأحرار الحسين بن علي (ع) في دعاء يوم عرفة : " أنتَ الَّذي أزلْتَ الأغْيارَ عَنْ قُلوبِ أحبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ " ! !

[1] بحار الأنوار : ج٧٧ ص ٧٦ ، أمالي الطوسي : ج ٢ ص ١٣٨ ، نهج الفصاحة : ص ٦٥ ، مسند أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ١٣٢ ، حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني : ج٨ ص ٢٠٢ ، كنز العمال : ج ٣ ص ٢١ ح ٥٢٥٠ .

وقال (ع) : " مَتى غِبْتَ حَتَّى تَحْتاجَ إلَى دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ " ! !

وقال ولده الإمام السجاد (ع) في أحد أدعيته : " وفَرِّغْ قَلْبِي لِمَحَبَّتِكَ واشْغَلْهُ بِذِكْرِكَ " [(١)] .

فبالحب الخالص لله سبحانه يستحيل على العبد السالك أن يُدخل في قلبه – وهو حرم الله – أحدا غير الله [(٢)] ، وعليه لا يغيب ربه عن بصر قلبه طرفة عين .

إذا ما تجلَّى لي فكُلِّي نواظرُ ... وإنْ هو ناجاني فكُلِّي مَسامِعُ

الأثر الرابع : المشاركة في مجالس ذكر الله والاجتناب عن مجالس معصية الله

فمما يورث العبد حب الله تبارك وتعالى هو الحضور في مجالس أهل الدين والمعرفة والصدق والأمانة والصلاح والذكر الحسن، وقد قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) : " مُجالَسَةُ الصَّالحينَ داعيَةٌ إلَى الصَّلاحِ " [(٣)] ثم الابتعاد عن مجالس أهل الريب والجهل والسفه والضلال والإعراض عن ذكر الله فإنها مجالس باء أهلها بسخط من الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام:٦٨]، فعلى المحب لله عدم المشاركة في مجالس يكون الحديث فيها خوضا في آيات الله واستهزاءً بعلومه ومعارفه واجتراءً على الله وعلى أوليائه وأحبائه خاصة إذا لم يتيسَّر له إبطاله وتغييره .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما مِنْ مَيِّتٍ يَموتُ حَتَّى يَتَراءى له مَلَكانِ الكاتبانِ عَمَلَهُ فَإنْ كانَ مُطيعاً قالا جَزاكَ اللهُ عنَّا خَيْراً فَرُبَّ مَجْلِسِ صدْقٍ أجْلَسْتَنا وعَمَلٍ صالِحٍ قدْ أحْضَرْتَنا وإنْ كانَ فاجراً قالا لا جَزاكَ اللهُ عنَّا خَيْراً فَرُبَّ مَجْلِسِ سوءٍ قَدْ أجْلَسْتَنا وعَمَلٍ غَيْرِ صالِحٍ قَدْ أحْضَرْتَنا وكَلامٍ قَبيحٍ قَدْ أسْمَعْتَنا " [(٤)] ! !

[(١)] الصحيفة السجادية : الدعاء الواحد والعشرون – دعاؤه إذا أحزنه أمر وأهمته الخطايا .

[(٢)] قال الإمام الصادق (ع) : " القَلْبُ حَرَمُ اللهِ فَلا تُسْكِنْ حَرَمَ اللهِ إلاَّ اللهَ " – جامع الأخبار : ص ١٨٥ ومنه بحار الأنوار : ج٧٠ ص٢٥ ، كنز العمال : ج١ ص ٢٥ .

[(٣)] بحار الأنوار : ج١ ص ١٤١ .

[(٤)] المصدر السابق : ج٦ ض ١١٦ .

وعلى هذا فالجلساء الذين يألف المحب لله بالجلوس في مجالسهم ويأنس بالحضور معهم ويشعر بالقرب إلى الله تعالى هم من جاء وصفهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: قالت الحَوارِيُّون لعيسَى عليه السلام يا روحَ الله مَنْ نُجَالِسْ؟ قال عليه السلام: مَنْ يُذَكِّرُكُمُ اللهَ رُؤْيَتُهُ ويَزِيدُ في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ ويُرَغِّبُكُمْ في الآخِرَةِ عَمَلُهُ "[1] ! !

الأثر الخامس: حب الخلوة مع الله .

كان فيما ناجى الله عزَّ وجلَّ به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: " يا ابْنَ عِمْرانَ كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّنِي فإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنِّي أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبِيبِه ، ها أنا ذا يا ابْنَ عِمْرانَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحِبَّائِي إذا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوَّلْتُ أَبْصارَهُمْ في قُلُوبِهِمْ ومَثَّلْتُ عُقُوبَتِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ يُخاطِبُونِي عَنِ المُشاهَدَةِ ويُكَلِّمُونِي عَنِ الحُضُورِ "[2] .

فالسالك إلى الله يحب أن يتفرد بذكر الله ويأنس بمناجاته ، ومع غلبة الأنس يعرض عن كل ما يشغله عن الحق ، وينعزل عن الخلق ويتجرد عن ملاحظة الغير ، ويسدل الحجب ويرخي الأستار بينه وبينهم ، ويلزم الخلوة والانفراد بحبيبه ، لتشرق أنواره على قلبه ، ويتنعم بلذيذ مجالسته ومحاضرته ، ويطَّلع على ما يكشف له من علمه وأسراره .

الأثر السادس: عدم الحزن على فقد شيء أو الفرح لحصول شيء .

فالعارف المحب لله يخلي قلبه ونفسه عن كل همٍّ وشاغل سوى تعلقه بمحبوبه والخلوة به واللذة بذكره ومناجاته والبهجة بإشراقات أنواره وتجليات جماله على مرآة قلبه ، ولهذا لا يحزنه فَقْد شيء ولا يسُرُّه إقبال شيء إلا ما كان لله وفي الله ، لأنه يعلم أن كل شيء ملك لله وحده يضعه حيث يشاء ويعطيه من يشاء ، فإن أعطى عبدا أعطاه ما ليس له وإن منعه منعه ما ليس له وهو الجواد إن أعطى وإن منع ، ولهذا لا تؤثِّر فيه

[1] الكافي: ج١ ص٣٩ .

[2] بحار الأنوار: ج١٣ ص٣٢٩ ، ج٧٠ ص١٤ ، أمالي الشيخ الصدوق: ط١٩٧٠ المجلس ٥٧ ص٣١٨ .

العوارض والأسباب وظواهر الأمور بأن يرى نفسه دون الآخرين في المال والثروة والمنصب فيحزن عليها ويتألم، بل يكون حزنه على طاعة مقربة تركها أو مستحبات لم يؤدها أو معصية ارتكبها أو مكروهات عملها أو أضاع ساعة مضت خلت عن ذكر الله.

وكما قيل: "إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لا يَتَحَسَّرونَ عَلى شيءٍ فاتَهُمْ مِنَ الدُّنيا كَتَحَسُّرِهم عَلى ساعةٍ مَرَّت مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ"[1]!!

الأثر السابع: الرجاء والخوف

وهي من الآثار اللازمة للمحب لله.

قال الصادق (ع):

"مَنْ كانَ بِاللهِ عارِفاً كانَ مِنَ اللهِ خائفاً وإلَيه راجياً"[2].

فأما الرجاء فإنه لا يكون إلا بعد تهيئة المقدمات وتمهيد الأسباب الداخلة تحت إرادة العبد من الإيمان والجهاد ومحبة الله وخلوص القلب وصدق العمل وغيرها ومن ثم انتظار الفضل والإحسان وسعة الرحمة من الملك المنان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وأما الخوف فهو تألم القلب لتوقع مكروه في المستقبل، وللخوف مراتب، فخوف العوام من عذاب الله وانتقامه وسخطه، وخوف المحبين وأرباب القلوب من خطر بُعده وفراقه وإعراضه لما أعطتهم المعرفة بصفاته وأسمائه من الهيبة والعظمة والإجلال وما عرفوه من حقيقة كلمته تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فأعلم الناس بالله أخوفهم له، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أَخْوَفُكُمْ لله"، لأنه أشدهم حباً لله وأعلمهم به فأخوفهم له.

[1] مستدرك الوسائل: ج٥ ص٢٨٨.

[2] المصدر السابق: ج١١ ص٢٢٦.

هذا وللرجاء حد وللخوف حد ، فإذا تجاوز الرجاء إلى الأمن فهو خسران مبين، وإذا تجاوز الخوف إلى القنوط واليأس فهو كفر وضلال ، ولابد من الاعتدال في كفتيهما فلا يغلب الرجاء على الخوف ولا الخوف على الرجاء .

فعن الإمام الباقر (ع) : " لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلاَّ وفي قَلْبِه نوران نورٌ مِنْ خِيفَةٍ ونورٌ مِنْ رَجاءٍ لَوْ وُزِنَ هذا لَمْ يَزِدْ عَلَى هذا ولَوْ وُزِنَ هذا لَمْ يَزِدْ عَلَى هذا " [1] ! !

الأثر الثامن : الشفقة والرأفة على عباد الله والرحمة والتذلل لأولياء الله والتعزز والشدة على أعداء الله .

إن الشفقة والرأفة والودّ والرحمة من صفات الباري عزَّ وجلَّ ، ولا شك أن المحب يتطلع دوما إلى التشبه بمحبوبه في جميع صفاته ، فإذا ورث القلب حب الله تبارك وتعالى كان المحب يقظ الإحساس رقيق القلب على عباد الله وخَلْقه بعيدا عن الشدة والقسوة مشفقا محسنا رءوفاً رحيما بمن أمره الله برحمته مشاركا إياهم بوجدانه خافض الجناح لهم لاسيما الفقراء والمساكين منهم وأهل الاحتياج والفاقة فيخفُّ إلى مساعدتهم ويهرع إلى مواساتهم ، وهذا ما يرضي الله سبحانه ، ولا غاية للمحب سوى رضا المحبوب ، وقد روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب أخبرني عن آية رضاك عن عبدك فأوحى الله تعالى إليه : " إذا رَأَيتَ نَفْسَكَ تُحِبُّ المَساكِينَ وتُبْغِضُ الجَبَّارِينَ فذلك آيَةُ رِضاي " [2] ! !

ولما كان للفقر كراهة جبلّية في النفس البشرية فعلى السالك إلى الله أن يسأل ربه أن يحبب إليه صحبة الفقراء ومعاشرتهم ومجالستهم لما في ذلك من ترويض للنفس وتزكيتها بالصبر والتواضع وصيانتها من الخوض في ملذات الدنيا ، ويقول كما قال الإمام زين العابدين (ع) في دعائه : " اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَيَّ صُحْبَةَ الفُقَراءِ وأعِنّي عَلَى صُحْبَتِهِمْ بِحُسْنِ الصَّبْرِ " [3] اتباعا لقوله تعالى في محكم كتابه مخاطبا خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَٱصْبِرْ

[1] الحقائق في محاسن الأخلاق (للفيض الكاشاني) : ص ١٥٩ ، بحار الأنوار : ج ٧٨ ص ٢٦٠ مع اختلاف يسير في الألفاظ .

[2] بحار الأنوار : ج ٧٠ ص ٢٦ .

[3] الصحيفة السجادية : الدعاء الثلاثين .

نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] ! !

وفي حديث ليلة المعراج قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:

" يا أَحْمَدَ ، إنَّ المَحَبَّةَ هيَ المَحَبَّةُ للفقَراء وَالتَّقَرُّبُ إليْهِمْ ، قال صلى الله عليه وسلم : يا رَبِّ وَمَن الفُقَراءُ ؟ ! قال تعالى : " الَّذينَ رَضوا بالقَليل وَصَبَرُوا عَلى الجوعِ وشكَروا عَلَى الرَّخاء وَلَمْ يَشْكُوا جوعَهُم ولا ظَمَأهُم ولَمْ يُكَذِّبوا بألسنَتِهم ولَمْ يَغْضَبوا عَلَى رَبِّهم ولَمْ يَغْتَمُّوا عَلَى ما فاتَهُم وَلَمْ يَفْرَحوا بما آتاهُم " [1] ! !

ومن آثار حب الله تعالى المودة للمؤمنين والتذلل لأولياء الله الصالحين والبغض لأعداء الله والمخالفين كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

الأثر التاسع : كتمان حبه لله .

وهذا الأثر من أبرز الآثار عند الخواص والسالكين إلى الله والعارفين المحبين الذين تجردوا عن الخلق واتصلوا بالحق فلم يحبوا إلا الله ولم يعرفوا إلا الله ولم يأنسوا إلا بحب الله ، فـ صانوا قلوبهم أن يدخلها إلا ربهم، وستروا مقامهم عنده في نفوسهم ، وحجبوا محبتهم له في قلوبهم ، وكتموها عن غير هم، تعظيما لشأنه وغيرة لجنابه .

ونعم ما قيل : " لَوْلا حُضورُ الأغْيار ما كانَت الأَسْرارُ " ، فلو كان للكلِّ أهلية الوصول إلى الأسرار ومعدن الأنوار لتجلَّت كل الحقائق عن بطون الأستار ، وظهرت جميع المعاني عن طي الاحتجاب والكتمان ، ولم يكن للأسرار في ديار القلوب مكان ! !

وفي الختام نستذكر قول مولانا الإمام الحسين بن علي (ع) الذي قال في بعض أدعيته :

[1] إرشاد القلوب : ج ١ – ٢ باب ٥٤ ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

" أنتَ الذي أشرَقَت الأنوارُ في قلوب أوليائك حتّى عرَفوك ووحّدُوك وأنت الذي أزلتَ الأغيارَ عن قلوب أحبّائك حتّى لَمْ يُحبّوا سواك ولَمْ يلجَأوا إلى غيرك " .

عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تراك عليها رقيباً وخسرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ من حُبّكَ نَصيباً ، إلهي أ مَرْتَ بالرُّجوعِ إلى الآثار فا رْجِعْني إليك بكسْوَةِ الأنوار وهدايَةِ الاسْتِبْصار حتّى أرْجِعَ إليكَ منها كما دَخَلْتُ إليك منها مَصُونَ السّرِّ عن النّظَرِ إليها ومَرْفوعَ الهِمّةِ عن الاعتمادِ عليها إنك على كُلِّ شيءٍ قَديرٍ " ! !